سعاد الصباح..

المتوجة بذاكرة القصيدة

كثيرة هى الكتب والدراسات؛ التى تناولت رحلة الإبداع الشعرى للشاعرة الكبيرة د. سعاد الصباح، فالرحلة تستحق التأمل والدراسة والتحليل، وعقد الموازنات والحديث عن التأثيرات والمؤثرات، وما أحدثته الشاعرة فى القصيدة العربية المؤنثة من موضوعات وتصورات وأخيلة، وتناول قضايا مجتمعية شائكة، وقضايا تخص الهم الإنسانى، باعتبار أن الشعر هو تجربة تسجل الهم والوجع والمأمول الإنسانى.

يأتى كتاب الشاعر والناقد العراقى عذاب الركابى "ذاكرة الوقت المتوج بالقصيدة" ليقدم رحلة الشعر، حيث صارت المرأة شعرًا، وصار الشعر امرأة، الشاعرة ابنة الثقافة العربية، "تقدم عالمًا مليئًا بالأخيلة الهادرة، بالصور والأحاسيس والمشاعر، التى تتكثف على سطح مرآة الروح، روائح عطرة، فصارت قطرات لروح تستعذب تذوق المعاناة الإنسانية".

المرأة قصيدة، والقصيدة امرأة، والمرأة والقصيدة والكتابة أنوثة فاعلة صاخبة، هى ذروة المعارف الإنسانية، فمن البداية يؤكد عذاب الركابى على أن شعر الصباح يحمل بصمات أنامل صاحبته، وفكرها ووعيها الإنسانى، المتفتح على حقيقة كونها امرأة صارت هى

والقصيدة وحدة أزلية وجمالية، لا يمكن فصلهما؛ حتى لو حاول الناقد فعل ذلك، وهذا ما أكده الركابى فى كتابه.

فعل الكتابة عند الصباح – كما يراه عذاب الركابى – رعشة إصبع ، ذبذبة موسيقى، سيمفونية كونية، لحظة تتماهى فيها القصيدة والمرأة لتصيرا كيانًا يصيغ العالم.

وشاعرتنا إنسانة نصيبها من كنوز الوقت قصائد، ما أروع أن يصير الوقت قصائد عذبة تناجى الروح وتهدهد النفس، "فالقصيدة منطاد نجاة"، تقدمه الشاعرة للحائرين بإنسانيتهم، ورفاهة مشاعرهم، ومن ثم تهدي قصائدها للحالمين بالحب والحرية والعدالة والسلام والطمأنينة، القصيدة – هنا – تتقد بالمشاعر والأخيلة، وبالصور والكلمات وانتفاضة الروح، فتهب الصدق والنقاء.

تتفق كل من مرجريت أتوود وسعاد الصباح على أن ولادة القصائد، ومواكب الكلمات، وصخب الحروف، أكبر انتصار يسجله الإنسان المبدع الحالم على مر الزمن"

رؤية الشاعرة للقصيدة تتخطى الزمن الحاضر، لتصل للزمن السرمدى الأبدى، فيدور الكون فى فلك القصيدة، الكلمات لا تنهزم، لكنها – كما ترى أتوود دائمًا – هى المنتصر الوحيد.

إن صخب الحروف هو الانتصار الأبدى للإنسان الحالم على الزمن

تقول سعاد الصباح:

أريد أن ألبس فى تنقلى

قبعة الرعود
أريد أن أدخل فى شريان من أوردة
يومًا ولا أعود
أريد أن أزرع فكرى
خارج التاريخ والجغرافيا
أريد أن أقول ما أقوله
من دون أن يتبعنى السياف
ودون أن أدفن فى قبر من العادات والأعراف
أريد أن أهرب من بشاعة التجار فى البازار

جملة "أريد أن..." التى تتكرر فى القصيدة هى المفاصل الواصلة بين هذا الواقع؛ الذى لم تفصح عنه القصيدة، وبين المأمول، ومن ثم تبث الشاعرة رغبتها فى تغيير عالمها، وعالم أخواتها وبنات جنسها، إن فعل الإرادة يطابق فعل تحقق الكينونة، عبر وعى الشاعرة بموقعها الريادى، فهى تعزز كل من حاولت الخروج على المألوف والمتعارف؛ الذى كبل وكبح حركة ووعى المرأة بذاتها، ووعى المجتمع بها، إنها هنا تستحضر الحكاءة الأولى، والأم الرؤوم – شهرزاد – التى دافعت عن بنات جنسها، متحدية السياف قاطع رقاب أخواتها والمترصد لها، لو أخفقت فى الحكى!

يسأل عذاب الركابى الشاعرة: لماذا كل هذا الغضب، والتمرد فى شعرك؟ أهو رد فعل لاضطهاد المرأة الذى فى داخلك؟ أم هو الإجابة الوحيدة الشافية عن أسئلة الروح؟ أم ماذا؟

ترد الصباح قائلة: لم تكن المرأة فى داخلى مضطهدة يومًا، فقد عشت كما ينبغى فى كنف والد متفتح الذهن سبق عصره، وزوج كانت له بصمة على جسد الزمن.. وكنت بينهما حرة العقل والفكر والحياة، لكنى أحارب الظلم والظلام ولم تكن قضيتى ذاتية.

لا يعنى أن يعيش الإنسان حرًا، أن يتخلى عن حرية الإنسانية، كيف نعيش أحرارًا وهناك من يفتقد هذه الحرية؟

الحرية لدى شعر الصباح قضية، لم يكن- ذات يوم- ترفاً لفئة أو طبقة بعينها، تحتكرها دون غيرها.

إن صوت الشاعرة صار صوت شهرزاد التى لم تخف التوعد والتهديد بالقتل، ظلت تبدع تحت وطأة الخوف، وتدافع بالحكى، ومزيد من الحكى عن بنات جنسها، وتعيد روح الإنسانية وتعالج ما اعتور فى نفس شهريار من أمراض، هكذا كانت أم الحكى الأول، وهكذا تستصرخ شاعرتنا، معلنة عن رفضها للقمع والتنكيل بالمرأة.

" أجمل ما فى القصيدة أنها أنثى بغير تاء التأنيث.. الكلمات أنثى، فتنة الكون أنثى، لكنها لا تلعب بالغيم، فتضطجع كما أراد لها أدونيس، ولا سحر الكلمات أوركسترا كونية تحرك المفاصل المعطلة فى جسد العالم"

كيف يلتقى وجهان للشاعرة، الأول الوجه الإبداعى لشاعرة، والثانى خبيرة علم الاقتصاد، هل ثمة ازدواجية أو غموض، كيف ترى الصباح ذلك؟

لنتأمل إجابتها:

" لا غموض.. كل ما فى الأمر أننى جعلت المال خادمًا للشعر، ألبست القصيدة أجمل فساتينها، وأجلستها على عرشها، ثم جعلت الاقتصاد نادلًا ينفذ طلباتها، ويقدم لها الشاى والقهوة.

لم يكن الشعر فى يوم من الأيام خادمًا للمال، فالصباح كانت – ولا تزال – تقدم للشعر الكثير عبر مؤسستها التى رعت أجيالًا وأجيالًا، وقدمت مبدعين، عبر المسابقات والنشر، وتكبدت – فى مرحلة منها – خسائر جسيمة، إلا أنها لم تبخل يوماً بالإنفاق على الشعر وتدليله.

لم يقف الأمر عند الشعر، أذكر فى أوائل الألفية الثالثة، أنها أقامت حفلًا ضخماً لتكريم د. ثروت عكاشة حضره رموز ثقافية من دول عربية وعالمية، ووزع العشرات من نسخ مجلد ضخم بعنوان " وردة فى عروة الفارس" يحوى أهم المنجزات الثقافية والفنية للدكتور ثروث عكاشة، ثمة منشورات مؤسسة سعاد الصباح، التى تقدم تنوعًا إبداعيًا من مجموعات قصصية وروايات ومجموعات شعرية، والمسرح والدراسات الإنسانية والإبداع الفلسطينى ومجال الإنترنت وعلم الفلك والتلوث البيئى، وقد حرصت كافة الأجيال على المشاركة فى المسابقات التى أقامتها دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع إلخ، المال يسرى فى نسغ الإبداع، فيطرح ثماره ليتذوقها المتلقى فى أقطار الوطن العربى.

تشبه سعاد الصباح قصيدتها بالقلادة التى صنعتها من كلمات الناس، ثم أهدتها لهم، فعرفوا سرها، وتذوقوا سحرها، ورغم أن سعاد

الصباح تعد من الشاعرات الرومانسيات إلا أنها جعلت قصيدتها جنديًا يحفظ الوطن، وترنيمة عشق لوطن أحبته فصار دمًا وروحًا.

هى تترنم باسم الوطن "كويت كويت ، تذكرنا بمطلع قصيدة بدر شاكر السياب.. قلبى ينادى عراق عراق، الوطن هو نحن، هو التاريخ والجغرافيا، هو الحنين والعزة والكرامة، القصيدة عند سعاد الصباح لا تعطى نفسها طيعة، بل هى عصارة فكر وفلسفة تتبناها الشاعرة، وتصدح بها قصيدتها، الكلمات هى دائمًا المنتصر، لذا جعلت قصيدتها سلاحًا يدافع عن الوطن والقيم الإنسانية.

ما الوطن؟

هو ليس الجغرافيا فقط، أو التاريخ فقط، إنه نحن، إنه حياتنا ومفردات هذه الحياة، إنه الحنان، والشلال الهادر من الذكريات:

ألوف الهدايا

وشاى أبى

وابتسامة أمى

ومحفظتى وجديلة شعرى

تظل الشاعرة تمتاح من عالمها الخاص، لحظات مترعة بالحنو والحب، وإذا كان الوطن عند محمود درويش خبز أمه وقهوة أمه، فإن الشاعرة تستحضر شخصية والدها، وهو شخصية متفتحة مثقفة، كان له دور كبير فى تكوين الشاعرة ثقافيًا، كذلك ذكرت أمها "ابتسامة أمى"، ما أروع هذه الابتسامة؛ التى تظل دافعًا لها على المواصلة، كل هذه المنمنمات الذاكرية ضمتها الشاعرة فى حافظتها/

الذاكرة، فهى المكان الأمين، ومن ثم سيظل الوطن معها أينما حلت أو رحلت.. أليس هو قصيدتها؟

بهذه الأشياء الخاصة الصغيرة، صار الوطن أكبر من كونه أرضاً وسماءً، جغرافيا وتاريخًا، صار قطعة حية من نفس وروح الشاعرة.

ما أروع كلمة "أشيلك" على مسامع المتلقى، وهى حينما ترددها، تزيد فينا هذا الولع والشوق والحنين للوطن، وهى – كما فعل الشاعر القديم – استدعاء أمجاد الآباء والأجداد، تستحضر فى قصيدتها أمجاد الكويت من خلال استحضار رحلات السندباد، وشخصية ابن ماجد يجوب البلاد، فيزرع النخيل العربية، ويبدر النجوم فى سماء الظلمة.

فى زمن لم يكن فيه بلدان
والشعر والنخيل مزهران
يغتسلان من مياه الخليج.

ما أروع هذا التكثيف، المبنى على العلاقات الإشارية البلاغية!

لا تنسى الشاعرة، وهى تنهى القصيدة بمفارقة، مفادها استحضار شخصيات نسائية، الرباب فى التراث العربى وسعاد اسم الشاعرة، وهو أيضًا جزء من بيت شعرى.

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول.

حينما يتعرض الوطن للخطر يكون الشعر سباقًا إلى تضميد جراحه، القصيدة هى ابنة الأحاسيس لا يعصى عليها أن تحتوى القضايا المصيرية، أن تكفكف نزف الوطن الدامى.

تقول الشاعرة عند غزو الكويت:

الأخوة الأعداء مروا من هنا

كى يملؤوا تاريخنـا تزويـــرا

غدروا بهارون الرشيد وأحرقوا

كتب التراث وأعدموا المنصورا

يتفتت التاريخ بين أصابعى

وأشاهد الوطـن الجميل كسيرا

إن سلاح القصيدة عند سعاد الصباح، أو ما يحب أن يطلق عليه الناقـد عـذاب الركـابى " ديناميـت القصـيدة" يخلـق مـا هـو جديـد، فـالظواهر الطبيعيـة تتغيـر لتحـل محلهـا ضـحكة، قطـرة مطـر تخبـئ الدفـء، تحفر الشـاعرة حروفهـا علـى آنيـة القلـب، إنهـا مـع الحـالمين بعالم تسوده المحبة.

تـرى الشـاعرة أن اللغـة طفـل تهدهـده الشـاعرة، فالحـب والحنـان والعشق هى مجالات اللغة الآمنة التى تستظل بها الشاعرة من هجير الغربـة والألـم، لا يمكـن أن يكـون الشـعر عاطفـة فقـط، ثمـة انتعاشـات فكرية، لأن الشعر عملية خلق متكاملة لا تعرف التجزئة أو الإقصاء " هى تأتى بأثواب نسائم إيقاعية منغمة، وتنتمى بنضج فكر، ورحابة صدر، وسعة قلب، إلى عصرها برؤى فجرية تنبئ وتغير وتبدع. كل ذلـك لتأسـيس حلـم جديـد.. إنهـا مخلوقـة مـن شـعاع، القصـيدة لـديها مشرعة على كل ما هو جديد ومثير ومبتكر.

ثمة خصوصية لبناء قصيدة سعاد الصباح، هذا البناء يبدأ بإيقاع موسيقى هادئ يتلازم مع إلقاء تساؤلات تضع المتلقى فى أتون الطرح الفلسفى، الذى تمتاح منه الشاعرة بحرية وانطلاق، فتتحول المسائل الوجودية العصية على الفهم إلى صور متلاحقة من الأخيلة والصور الجمالية بسيطة التراكيب.

تقول الناقدة الفرنسية سوزان برنار"إن قصيدة النثر قطعة نثر موجزة بما فيها الكفاية، إنها قطعة بلور"

من يقرأ شعر سعاد الصباح يظن للوهلة الأولى أن شعرها يتسم بالمباشرة، لكن ثمة انزياحات لا تعطى نفسها بسهولة من الوهلة الأولى، هذه الانزياحات غالبًا ما تبئّر على قضايا الإنسان العربى المعاصر، فيكون الحديث عن المقهورين والمضطهدين، هذه الانزياحات هى الجذوة التى تمد الشاعرة بالقوة والمواجهة لكل القوى المتسلطة القاهرة .

نشير إلى قولها:

أخت روحى.. أو عن لوعة قلبى تسألين؟

أنا همى ما له كتب الهم قرين.

ليتك اليوم بنارى واحتراقى تشعرين.

الصمت المتلازم لوجود المرأة صار صمتًا جدليًا، لا يمكن السكوت عنه أو يمر هكذا، لماذا فرض الصمت على المرأة، بينما صدح الرجل بشعره، فجاب الفيافى، تحدث عن الفخر والنزال

والفروسية والغزل؛ وحينما تخلت المرأة عن صمتها، وجهرت بصوتها، كان صوت الرثاء والبكاء والعويل على الراحلين من الرجال.

شعر سعاد الصباح "هو الحب الغامض المكشوف، الغامض الشفاف، البعيد القريب"

سعاد الشاعرة الحالمة، لا أحد يملك التجسس على قلبها غير الشوق، ولا أحد يرطب نبضات قلبها الدافئ غير القصيدة:

قل لى .. قل لى

هل أحببت امرأة قبلى؟

قل لى إنى الحب الأول

قل لى إنى الوعد الأول

يرى عذاب الركابى أن الشعر يمثل الحياة، وهنا تلتقى سعاد الصباح مع أدونيس الذى يرى الشعر ميتا فيزياء الكيان الإنسانى، الشعر هو الأصل، هو رب الفنون.

تقول الصباح: "يا للكتابة من مهنة شاقة عذبة" وكأن الشاعرة تقول لذاتها كما قال الروائى الأرجنتينى آندرس نيومان"هذه طريقة جديدة للحياة".

يواصل عذاب الركابى الغوص ليستخرج المفاهيم الضمنية التى يعدها لآلئ ترصع قصيدة الصباح، فالشاعر هو نصه، والنص لحظة ولادة، لذا تحتفى شاعرتنا بهذا المولود، وتحوطه بكل ما تملكه إلى أن ينبت له الريش، وينطلق فى سماء الكون يغرد، وعليها أن تتبعه بعصفور آخر يلحقه فى الكون.

ماذا يصبح العالم والكون بغير شعر؟

هكذا يلقى علينا هذا السؤال صاحب كتاب " سعاد الصباح – ذاكرة الوقت المتوج بالقصيدة"، ويجد الجواب عند بول فاليرى" ضفة يغمرها الضباب"، لكن شاعرتنا تجد العالم مشهدًا جنائزيًا، ولمناقشة القضية يضفر الناقد مقولة لبورخس برؤية الشاعرة للشعر، فالبحث فى ماهية الشعر هو بحث فى ماهية الحياة.

إن عالم الصباح الشعرى هو عالم صافى رقراق، ينبع ماؤه من نفس محبة للعالم والجمال والإنسانية، إنه قطرات تبلل هجير هذه الحياة، وتنعش فى النفوس الأمل فى غد أفضل.